بسم الله الرحمن الرحيم

**أبعاد مشكلة الدراسات العليا**

تمثل الدراسات العليا في الجامعات ابرز عناصر النظام التعليمي واكثرها تاثيرا على مستقبل البلد الحضاري والعلمي ، وذلك لأن الجامعات هي التي ترفد المجتمع بقادته في مختلف مجالات الحياة المدنية ، و الدراسات العليا هي من تتولى عملية تأهيل من سيقوم بتأهيل هؤلاء القادة . فاذا كانت عملية التأهيل في مستواها الأعلى ليست بالمستوى المطلوب ، فلا يتوقع أن تكون عملية التأهيل في المستوى الأدنى جيدة . وبالمحصلة النهائية يحرم المجتمع من المؤهلين علميا لقيادة المجتمع وبناء حضارته ، وعلى مختلف الاصعدة والمستويات. فعملية التردي مثل كرة الثلج تكبر مع حركة الهبوط من اعلى القمة الى ادناها ، الى الوادي .

يناقش هذا المقال "أبعاد مشكلة الدراسات العليا" ، من وجهة نظر شخصية خاضعة للمناقشة والحوار ، هدفها جلب الانظار الى ابعاد المشكلة ، و مناقشتها بعمق و روية قصد المعالجة والتحسب عند التعامل مع عملية بناء مستقبل العراق كواجب وطني ، وان على كل من لديه الرغبة والاستعداد للمساهمة أن يدلو بدوله في المساعدة وليس في اثارة العقبات و وضع العصا في العجلة .

الملام دائما في مشكلة الدراسات العليا هو القسم العلمي ، وهو يتحمل جزء كبيرا منها ، ولكنه ليس الوحيد المعني بها والمسئول عنها . لذا ستناقش الابعاد طبقا لمصدرها وتأثيرها وفق ثلاث محاور ، هي :-

1) **محور المطرقة والسندان** ،

أ- **آلية القبول والامتحان** ، باعتماد قوانين التعليم العالي و تعليمات الدراسات العليا الأصلية وتطبيقها بشكل سليم وناجز ، لا تحدث أية مشكلة ، فكل شيء مدروس و موزون والنتائج محسوبة بشكل جيد . ولكن تبدأ المشكلة عندما ترد تعديلات تفرض زيادات في عدد المقبولين واستحداث قنوات للقبول ، وتمارس ضغطا للقبول الاستثنائي . تضع هذه الممارسات القسم العلمي في مازق الاشراف والمتابعة والحفاظ على المستوى العلمي . وتتفاقم المشكلة وتتعقد أكثر بالتوجيه لاعادة الامتحان للمرة الثالثة والرابعة وعودة المرقنة قيودهم وغيرها من اجراءات تحبط التدريسي الجاد في عمله والساعي للارتقاء بالمستوى العلمي لطلبته والقسم .

ب - **مستوى الطلبة** ، باتباع وسائل تعليمية خاطئة (التلقين والحفظ) والابتعاد عن الطرائق التي تعود الطلبة على التفكير والانتاج الفكري (العملي والدراسة الميدانية والمختبرات وكتابة مقالات وابحاث) ، وتكرار المادة العلمية (في الدراسة الاولية والعليا) ، والتحول من الكتب المنهجية و المصادر والمراجع الى (الملازم) فقد تردى مستوى الطالب التعليمي و انخفض منسوب ما لديه من معرفة تخصصية و عامة . واضحت درجة الامتحان لا تعكس حقيقة المستوى المعرفي والعقلي للطالب . لذا باعتمادها معيارا رئيسا في القبول ، و عد المقابلة و امتحان القبول مكملان (من شكليات القبول وليس من معاييره الرئيسة) فقد سهل ذلك قبول طلبة للدراسات العليا غير مؤهلين فعليا لها . يكمل ذلك قبول الطلبة من القنوات الاخرى، وهم في الغالب في مستويات ادنى .

ولا ننسى ان مستوى المحاضرة و الواجبات المرافقة لها لا تتحدد بمستوى التدريسي فقط ، بل بمستوى الطلبة ودرجة استيعابهم للمادة العلمية وقدرتهم على الارتقاء بانفسهم للوصول الى مستوى الاستاذ المحاضر . النتيجة الحتمية لذلك انخفاض مستوى المحاضرة و قنوط المحاضر وتراجعه عن التعمق في المادة العلمية والتوسع بها وفقا لمستواه و طموحه ، خاصة وانه يعلم ويتوقع حدوث ضغوطا ثقيلة عند عدم تحقيق نسبة (نجاح) بالدرجات وليس بالمستوى العلمي . وبعض التدريسيين يتناغم ذلك مع مستوياتهم و مشاغلهم (الحياتية) ، حيث تصبح المحاضرة (اسهل) ولا تحتاج الى تحضير و متابعة لما بعدها . وبهذا تتسارع حركة كرة الثلج بالتدحرج والنمو بالنسبة للطالب و التدريسي على حد سواء .

2**) محور الوهن العام ،**

1- **احادية اللغة** ، بسبب اعتماد طرائق تدريس خاطئة للغة الاجنبية ، (بدء من الدراسة الابتدائية وصعودا للعليا) ، ساد ضعف عام فيها و عزوف عن تعلمها و التوسع في معرفتها واستخدامها . عمق ذلك وزاده قساوة أن نسبة غير قليلة من تدريسيي الجامعة هم من خريجي الجامعات العراقية ، وجاء التساهل في معيار اتقان لغة اجنبية في القبول ليزيد الطين بلة .

انعكس هذا على ضعف المستوى العلمي للتدريسي قبل الطالب ، و ادى الى عدم الافادة من المكتبة الافتراضية وما فيها من مراجع ومصادر ، ناهيك عن المصادر الاخرى . وفي حال الضغط على الطلبة لاعتماد مصادر اجنبية ، تعتمد تراجم (كوكل البائسة) او تعطى للمختصين باللغة وليس بالمادة العلمية ، مما يجعل الترجمة ركيكة جدا وغير مفيدة .

2- **الجهل بالمنطق العلمي** ، يستند العلم على اسس (القياس والتقويم) ، وتتطلب ذلك منطقا رياضيا لتحديد المقاييس و معايير التقويم . وكما في حال تعلم اللغة الاجنبية ، فان طرائق التدريس الخاطئة قد حالت دون تعلم المنطق العلمي عند تدريس الرياضيات . أدى هذا الى تجنب تعلم تقنيات التحليل الكمي (احصاء او غيره) ، والنظر اليها كمادة دخيلة مفروضة ليس لها صلة بتعلم الاختصاص و التمكن منه .

بتوفر الحاسبات والبرمجيات التحليلة سهلت عملية التحليل العلمي المعمق ، ولكن بقيت معظلة تفسير النتائج ، و اختيار التقنية المناسبة مع البيانات ومع هدف الدراسة حائلا دون الافادة منها واستخدامها. فالتحليل الكمي يتعدى العمليات الحسابية (جمع وطرح وقسمة وضرب) ، انه تفكير علمي وتبصر لما وراء الارقام وما تعنيه . إنه تحليل للعلاقات الداخلية بين المتغيرات وما تشكله التوزيعات من انماط ، والمؤشرات الحيوية غير منظورة .

3- **قصور طريقة التعلم الذاتي** ، يرتكز التطور على الرغبة والامكانات الذاتية للتعلم وتحقيق التطور . والجامعة بطبيعتها وبحكم وظيفتها القيادية فهي دائمة الحركة والتطور والتفاعل مع مجتمعها الوظيفي ، ومع المجتمع العلمي في العالم . بدون حركة متناغمة مع حركة المجتمع العلمي العالمي تتخلف الجامعة وتنزوي ، و تبقى قاصرة عن خدمة مجتمعها والنهوض به وبناء حضارته . وبدون وازع ذاتي للتعلم والتطور لدى منتسبيها لا يحدث التقدم لا على مستوى الفرد ولا القسم العلمي ، ولا الجامعة .

ومما يؤسف له ان طريقة التعليم السائدة قد ركزت على سياقات الاخذ السلبي (طريقة الملعقة) وليس على أسلوب التعلم الذاتي باكتشاف المعلومة والبحث عنها والسعي لاشتقاقها من مصادرها الخام . أستمر الامر هكذا من الابتدائية وحتى الدراسات العليا ، واستمرت مع العديد حتى بعد أن أصبح تدريسيا في الدراسات العليا . لذلك ، ما لديهم من رصيد (علمي) غير كاف للدراسات العليا ، و غير قابل للزيادة لأن الجديد كتب بلغة أخرى ، وهو لم يتعود التعلم الذاتي بل ينتظر من يعلمه (إن قبل ذلك تواضعا) .

4- **ضعف ثقافة البحث العلمي** ، البحث العلمي ليس مجرد شكليات في كتابة البحث العلمي ، انه منهج تفكير وعمل . وهذا المنهج يربط بين مجموعة من الموضوعات التي يفترض ان الباحث قد عرفها واستوعبها وادرك الصلة بينها ضمن اختصاصه العام . ففي الجغرافيا على سبيل المثال لا الحصر ، يفتقد الكثير الجغرافيين معرفة الصلة بين : منهج البحث العلمي ، علم الخرائط ، الفكر الجغرافي ، الدراسة الميدانية ، التحليل الكمي ، و موضوع التخصص الدقيق . وبعدم ممارسة البحث العلمي بصيغة علمية و سياقات صحيحة ، لا اثناء الدراسة الجامعية (الاولية والعليا) ، ولا بعدها فقد كتب العديد من (الرسائل والاطاريح) بصيغة معلومات منضدة اقرب الى الكتب المنهجية منها الى البحث العلمي .

إن معرفة شكليات البحث العلمي واجراءاته لا تعني وجود ثقافة بحثية ، الثقافة ترتكز على سعة المعرفة و على التطبيق والممارسة لها . ولما كانت المعلومات محدودة و مؤطرة بالاجراءات الروتينة ، (هدفها النجاح في الامتحان فقط) ، لذا جاءت الممارسات شكلية غير عميقة ومقصورة الهدف (الكتابة لنيل الشهادة فقط) ، ولذلك خيبت النتائج الآمال في كثير من الأحيان .

التفكير العلمي و التجديد والابتكار ، والامانة العلمية ، وتناغم هدف الدراسة مع الطريقة التحليلية ، وما ستضيفه للمعرفة العلمية ، وارتباط هدفها بحاجات المجتمع ومشاكله امورا غائبة عن ذهن الكثيرين . والتذكير بها قد يضيف شيئا للعنوان وليس للبحث والتقصي . لذلك ارتبط النتاج العلمي للكثيرين بمتطلبات الترقية الوظيفية (للتدريس في الدراسات العليا او الحصول على منصب اداري) وليس بقصد اكتساب معرفة وخبرة بحثية تكون ذات فائدة حقيقية للباحث و لتخصصه و بلده .

5 - **غياب الرؤية المستقبلية** ، عندما يكون الهدف الشخصي هو نيل شهادة اكاديمية اسوة بالاخرين ، وتكون الشهادة العليا سبيلا لتحقيق مصالح شخصية و وجاهة اجتماعية ، لذا تنحسر دائرة التفكير في المحيط الضيق و تغيب النظرة لمستقبل واعد في المجال العلمي . إن المستوى العلمي الرصين وما يحققه من نتاجات واضافات نوعية تنشر ويتقبلها الآخرون ، تجعله يتجاوز المحيط الضيق والزمن القصير لما نشره العديد من حملة الشهادات الجامعية العليا . النشر العلمي الرصين في وقتنا الراهن عالمي يتعدى الحدود الادارية والسياسية للدول والاقاليم و يصل الى اقاصي الارض بلمحة بصر متجاوزا الزمن والمكان . وللتمكن من لغة اجنبية اهمية في عملية النشر وتبادل المعرفة و الخبرة ، و الخروج من شرنقة المحلية .

بسبب الشعور بالضعف ، والتخلف عن الآخرين ، والخوف من النقد يميل الكثيرون الى اقل ما يمكن من نتاج ، وباصغر دائرة نشر ممكنة . مستقبل هؤلاء حيث هم ، زمانا ومكانا ، ومن المؤلم أنهم يعملون على إبقاء الآخرين معهم . ويتوقع ان يكونوا حجر عثرة كأداء أمام من سيأتي بجديد عند دراسته في مكان آخر ، خاصة وان لهم (القابا علمية) تؤهلهم بتقييم الآخرين و تحديد امكانات الافادة منهم .

3**) محور القسم العلمي** ،

لمجالات الوهن العام المذكورة آنفا دور فاعل في توجيه سياقات عمل الاقسام العلمية ، وانعكست بشكل جلي على الدراسات العليا وحفرت اخاديد فيها يصعب معالجتها .

(أ**) اللجنة العلمية** ، تختار اللجنة العلمية في القسم من اصحاب الالقاب العلمية العليا ، وبسبب الطريقة التي تم بها الحصول على اللقب العلمي ، و بسبب تفشي مفاهيم لا علمية ، مثل : (مركتنا على زياكنة ، خبزتنا وما ننطيها ، وباي شيء هم احسن من عدنا ، حك ظهري حتى احك ظهرك ، وغيرها) ، وبسبب التنافس الحاد على الخبزة (ممثلة بالمحاضرات والاشراف) ، وبسبب تغليب المصالح الشخصية على جميع القيم والأعراف ، فقد اصبحت اللجنة العلمية هي العقبة الحقيقية امام تقدم القسم وتطوره . وفي الغالب ، هناك اتفاق غير معلن على توزيع الحصص والنسب و المهام ، لا يسمح بالاخلال به مهما كانت الاسباب .

لم تضع اللجنة العلمية خطة علمية للقسم تاخذ بالحسبان احتياجاته الانية والمستقبلية من مواد و تخصصات و دورات تعريفية و تدريبية ، وليس لها استراتيج ورؤية مستقبلية . تعيش اليوم كما هي عليه ، والغد لا يختلف في شيء ، وقد يضاف ذلك الى معاني مفهوم الاستدامة .

(ب) **منهج الدراسات العليا** ، وهو من نتاج اللجنة العلمية ، فهو مفصل لها وحسب الامكانات (التقليدية) لأعضائها ، وقد يحدث تغيير في مسميات المواد دون المضمون ، وفي الاطار الخارجي دون التفاصيل الداخلية . انه تكرار لما اخذه الطالب في الاولية لأن هذه هي الاساسيات حسب رأيهم . إنهم ، في الغالب ، يجهلون الجديد في الاختصاص الدقيق ناهيك عن الاختصاص العام و تقنيات التحليل المعاصرة . فمتابعة المعظم منهم للجديد و الاطلاع على كتابات العالم الاخر شبه معدومة . إنهم في قوقعة القسم ينسجون ما يلبسون وعلى الآخرين تقبل ذلك لأنهم الأعلى في المنصب و اللقب .

لم يصمم منهج دراسات عليا ياخذ بالحسبان احتياجات سوق العمل ، او كورسات تخصصية دقيقة متكاملة في موضوع محدد . مثل هذه الكورسات لا تشمل جميع حملة الالقاب العلمية في القسم ، لذا ستخلق مشاكل ، هم في غنى عنها . الايسر والاقل احراجا ، استنساخ المناهج السابقة وعنوانات الرسائل والاطاريح و توزيعهاعلى الطلبة الجدد ، مع اجراء تعديل طفيف على المسميات فقط .

(ج) **مناقشة الرسائل والاطاريح ،** وهي الحلقة المكملة لما بدأته اللجنة العلمية ، لذا وبالضرورة ان تكون لجان المناقشة وسياقاتها مؤدية للنتيجة المطلوبة ، عدا ذلك هناك خلل في اختيار اعضائها وليس في المشرف او الطالب . ومناقشة الرسالة الجامعية, أو الأطروحة في واقعها العملي ، هي حفلة تخريج (قائد علمي) باقل جهد وادنى معرفة وخبرة .

هذه ابرز ملاحظاتي على الدراسات العليا ، كما لاحظتها عند عملي في جامعات البصره ، تكريت ، كوية ، ديالى ، و بغداد . وكما تعرض عند مناقشة الموضوع والحوار مع زملاء اعزاء لهم باع طويل في الدراسات العليا في مختلف جامعات العراق . المعالجة لا تنحسر بالقسم العلمي و تتحدد بامكاناته الذاتية و خططه المبتسرة ، بل بالارادة الصلبة للعمادة و رئاسة الجامعة و الوزارة .